مقدمة الطبعة الإنكليزية

تانيزاكي في رواية (الذين يحبون الشوك) على مفترق الطريق بين التقليد والحداثة

في اليوم الذي دمّر فيه زلزالٌ مدينتي طوكيو ويوكوهاما، وهو الاول من ايلول عام 1923كان تانيزاكي غونيشيره في جبال هاكون، جنوب يوكوهاما وقبل أن يخطر له أن يقلق على عائلته في يوكوهاما. كما كتبَ لاحقاً. شعرَ بفيض عجيب من السعادة لدى سماعه أخبار الكارثة

بقلم إدوارد سيدنستيكر

1

"الآن سوف يجعلون من طوكيو مدينة محترمة. لم أستطع أن أخفي هذا الخاطر السعيد". سوف يرحل الظلام عن المدينة القديمة، وتمتلئ المدينة الجديدة بالأبواق والمصابيح، ودور السينما، والمسحات الملائمة للمارة، والى صالونات التجميل، والحمامات التركية. عندما كتب تانيزاكي هذه الخواطر بعد عشر سنوات، كان يرمي إلى سرد قصة المرحلة الأولى من حياته. كان قد ناهز السابعة والثلاثين في عام 1923، وشهرته ككاتب قد ذاعت منذ عشر سنوات خلت. ولد لعائلة في طوكيو تنتمي إلى طبقة التجار، الطبقة التي كانت تدير دفة الثقافة اليابانية، عندما وصل كومودور بيري ليفتح البلاد. وكانت هذه الطبقة، في عام 1923، ما تزال تعتبر نفسها أفضل ثمرة للعرق الياباني. غير أن تانيزاكي كان يكن الكره لطبقته، وللتقليد الذي تمثله. أعماله الأولى، والتي ينعتها اليابانيون بأنها "شيطانية"، لم تكتب تحت تأثير الأسلاف اليابانيين، بقدر ما كانت متأثرة بإدغار بو، وبودلير، وأوسكار وايلد. ويبدو أنه في حياته الشخصية، كما هو حال بطله العجوز في هذه الرواية، كان مشدوداً إلى ثقافة أجنبية متنوعة ينتسب لها شعر "الرأس". وفي وقت الزلزال، كان يعيش فوق "الجرف العالي" لمدينة يوكوهاما، في قلب التجمع السكني للأجانب. قلة هم اليابانيون الذين أخذوا هذا المنحى للتطرف، حتى في عصر الانبهار بالغرب.

2

رواية (الذين يحبون الشوك) بوح شخصي، وقصة صراع ثقافي. ويبدو أن القضية المركزية في الرواية، زواج غير سعيد بين شخصين لا يمتلك بعضهما جنسياً، ويشعران بحيرة مضنية حول ما يجب فعله. إنها تحمل طابع السيرة الذاتية. في آب من عام 1930 طلق تانيزاكي زوجته، التي أصبحت، وفق تدبير مسبق، زوجة للشاعر والروائي ساتو هارو. كتب ساتو أنه ذات ليلة، بعد العشاء، علق تانيزاكي قائلاً: "ما رأيك أن تتزوج أوتشيو؟" وسار كل شيء على ما يرام منذ تلك اللحظة. الزواج الأول لتانيزاكي، كما يخمن المرء من مقابلات أجرتها الكاتب مع صحف ذلك العصر، ومن مذكرات ساتو، لم يكن يختلف عن زواج بطله كانامه في هذه الرواية. لم يكن تانيزاكي يضمر أي شيء ضد زوجته، لكنها ببساطة لم تكن تمتعه، وشعوره بالتعاسة، كما يبدو، كان قد بدأ قبل فترة من الوقت. ومن الواضح أنه كان يفكر بزوجته عندما نشر روايته (الذين يحبون الشوك) قبل سنتين من الطلاق. والرواية طابع السيرة الذاتية لأنها تحكي انبهار تانيزاكي المتزايد بمدينة أوساكا واليابان التقليدية. وبما أن الكثير من النثر الياباني المعاصر يتقنع بالسيرة، فإن المرء يشعر بالغبطة للعثور على رواية تتجاوز ذلك بكثير. حياة تانيزاكي الأولى، وإعجابه بالغرب في البداية، ثم تكاثره اللاحق باتجاه الماضي الياباني، تحكي الكثير عن اليابان الحديثة، إذ عندما يتحدث عن نفسه فإنما يتحدث عن أكثر من ذلك.

إن الموضوع الحقيقي لرواية (الذين يحبون الشوك) هو الصراع بين القديم والجديد، بين المستورد والمحلي. الصراع المادي والصراع الثقافي يتناوبان معاً بوجه عام. ميساكو، الزوجة، مأخوذة بكل ما هو أجنبي وجديد، وزوجها كانامه متجنب أكثر فأكثر لكل ما هو تقليدي. مع ذلك، كل منهما تتناهبه قوى متصارعة. ميساكو هي المرأة الشابة الأنيقة التي تمثل المستقبل، لكننا نعرف أنها ليست واثقة من نفسها، وفي نهاية الكتاب يعلق والدها بحكمة أن الحداثة "قشرة رقيقة جداً". أما كانامه، من جهته، فيصبو إلى دفن اضطراباته العاطفية من خلال الاندماج الهادئ بالطريقة اليابانية القديمة في الحياة، على الرغم من انجذابه إلى العاهرة اليوروآسيوية، لويز. وإذا كان لا بد من الطلاق، فإن ذلك سيعمل لصالح كانامه أكثر مما يعمل لصالح ميساكو، بالرغم من الأزمات التي ستواجه كانامه لاحقاً.

القديم والجديد بالنسبة لكانامه وتانيزاكي، ثمة مدينة طوكيو، من جهة، ومدينة أوساكا، من جهة أخرى. هنا المرأة الشهوانية اليورو-آسيوية، لويز، وهناك الدمية اليابانية الهشة، الصلبة بطلة غامضة، أوهيسا. طوكيو هي مدينة الأزياء الأجنبية والصحافة، ومدينة "النخبة المثقفة" التي هي نتاج هاتين الظاهرتين. عندما نشر آراءه عن المدينتين في عام 1934، رثى تانيزاكي هذا الوضع بالقول "لا يستطيع المرء بسهولة أن ينكر حقيقة أن طوكيو هي عاصمة الأمة، غير أن ضحالة طوكيو تركت أثرها على كل فن من فنوننا".

تاجر أوساكا، بشكل بساطة، ظل تاجر أوساكا، في حين أن مثقف طوكيو يلهث وراء المظاهر الخداعة التي لا تفيده في شيء، وبما أن ثقافة اليابان القديمة هي ثقافة تجار، فإن بعضاً من هذه الثقافة يجب أن يبقى في أوساكا، بل حتى في أوساكا، ربما، كانت هذه الثقافة تموت ومسرح الدمى، الذي يكرس تانيزاكي له في الرواية اهتماماً عاطفياً، لم يعد يستقطب الحشود وشركة الأفلام المتحركة التي تنعمه بهبات تواجي ويصيبها الوهن. ولكن في أوساكا، يجب أن يبقى ذلك ممكناً، ولو لبعض الوقت، من أجل أن يحيا المرء حياة تتصف بالاكتفاء الذاتي.

القبول البدئي بثقافة التجار يشي بالعودة إلى اليابان القديمة في رواية (الذين يحبون الشوك). وتأخذ العودة طابع الرجوع إلى الطفولة. كانامه، كما يقول الكاتب في الفصل الثالث، "ترعرع في الشطر التجاري من مدينة طوكيو قبل أن يدمرها الزلزال، وتفكيره بها يثير في نفسه الكثير من الحنين، ولكن بسبب كونه طفل الشطر التجاري، فهذا ما جعله أكثر حساسية لعيوبها". هذه الرغبة في العودة، إذن، تصبح بمثابة تأكيد على طفولة يرفضها العقل الناضج، إذ لم تزل القطب الناضج الأغنية الأوساكية "ثلج"، وهي أول مظهر للفن الأوساكي الذي يجتذب إليه كانامه، تثير في نفسه ذكريات عن سنوات طفولته في طوكيو. ويذكره المسرح في أوساكا بمظهرة بعيدة عندما اصطحبته والدته معها إلى مسرح في طوكيو. في الفصل الأخير، تحرم عانية كيوتو، أوهيسا، من الجنس وتتحول إلى مجرد دمية، ويريد لنا الكاتب أن نفهم بأن كانامه، من الآن فصاعداً، سيكون مهتماً بتلك الدمى التي على شاكلة أوهيسا. لن يواجه بعد الآن مشاكل البالغين، وسيعود ليحيا طفولته من جديد.

وإذا كان قد عاد، على أية حال، فلن يكون ذلك لوقت طويل، وتانيزاكي يعرف ذلك. الغرب هنا جاء ليبقى، وقريباً ستعيش طوكيو كل شيء وفق طريقتها. قال تانيزاكي في عام 1934 في مقالة حزينة ومؤثرة تتحدث عن الفنون التقليدية تحت عنوان (في مديح الظلال): "أعرف، مثل أي أحد آخر، أنني أحلم، وأننا، ما إن قطعنا كل هذه المسافة، يستحيل أن نعود إلى الوراء. أعرف أنني أشكو إلى نفسي، وأنني أطالب بالمستحيل. لن يكون ثمة من ضير، لو أن شكواي تؤخذ على ما هي عليه، عندما نتأمل كم نحن غير محظوظين، وكم علينا من الآلام، وتكبدنا خسائر، بالمقارنة مع الناس في الغرب. استطاع الغرب أن يتقدم إلى الأمام بخطوات محسوبة، في حين أننا واجهنا حضارة أعلى، وكان علينا أن نستسلم لها، ونترك الدرب الذي مشينا عليه لآلاف السنين".

أما اليوم فإن احتمالات عودة الحضارة القديمة تبدو أبعد بكثير من الوقت الذي كتبت فيه هذه الكلمات. ويبدو أن الحرب قد أكملت الأذى الذي بدأته طوكيو. جميع المدن الصغيرة التي نعرج عليها في الفصل العاشر، وما تضمه من بقايا حضارة سابقة قد دمرت تماماً. ومدينة أوساكا التي تصورها رواية (ساسيم يوكي) قد ولت هي الأخرى. أما كيوتو فقد نجت من القصف، ونجت الجدران الطينية والبيوت العتيقة المعتمة التي يحبها تانيزاكي كثيراً. غير أن المرء سيعثر في داخلها على نساء صغيرات وقد قصصن شعرهن على طريقة أودري هيبرن، أو تيلاء شبان يريدون الذهاب إلى باريس لدراسة شيء يسمى (فن التصميم) أو إلى بكين للتعرف هناك على الجنة. لم تكن كيوتو تملك رونقاً بارزاً باستثناء تانيزاكي، وتانيزاكي بلا تلاميذ. غير أن بعض الأشياء تبقى. مسرح أوساكا للعرائس، على سبيل المثال، بالرغم من أصوات كانت تنشد أيما هو أسوأ، بل حتى مسرح أواجي للدمى، والذي كان تانيزاكي يشعر حياله بكثير من التشاؤم عندما كتب (الذين يحبون الشوك). الصراع الكامن في قلب الرواية يستمر بإرباك الروح اليابانية. يبدو الجميع تقريباً وكأنهم اختاروا الجديد، ولكن ليسوا جميعاً سعداء به.

3

من السهل أن نفترض أن اليابانية لغة غامضة بلا رحمة، ويستحيل أن تمنح نفسها للترجمة، بل نعب البعض إلى التساؤل عما يمكن أن يحققه أبرع المترجمين. غير أن هذا الغموض يجب أن يكون سمة العبقرية في كل لغة. وتانيزاكي في مقالة مدهشة تحت عنوان "كلارك الإنشاء" يقول إن من واجب الكاتب الياباني أن يتلاءم مع هذا الغموض بحيث يجعل منه إحدى فضائل اللغة. يضع تانيزاكي نفسه في صف أولئك الأسلوبيين الذين تربوا على (حكاية الجني) ممن يسعون إلى ابتكار نثر حالم رشيق. هؤلاء تحتهم يرتقون من اختيار كلمات سريعة، وتقديم رؤيا سهلة وصحة، والانتقال الفاضح من استعارة أو فكرة إلى أخرى. يفضلون أن يظل نثرهم محاطاً بهالة من الغموض، يوحي أكثر مما يقول. ويصفهم تانيزاكي بأنهم أسلوبيون يابانيون ساكون، بالمقارنة مع الكتاب المتأثرين بالأدب الصيني الذين يفضلون الدقة والإيجاز. ويستطيع المرء أن يستنتج أن اللغة الأخيرة، التي تحتل الساحة الأدبية اليوم، تمارس عسفاً من نوع ما ضد الطبيعة الجوهرية للغة اليابانية.

لا تهدف هذه الأفكار إلى إظهار الصعوبة في ترجمة تانيزاكي، إن جملة تانيزاكي، بالرغم من ملاءتها الإيحائية الشعرية هي في الحقيقة مثال للتعبير الشفاف بل لتسليط الضوء على ما يمكن أن يعتبره القارئ الأجنبي نهايات مربكة وغير أكيدة. في الفصل الأخير من رواية (الذين يحبون الشوك) نرى أن كانامه، البطل، منجذب بقوة إلى أوهيسا، حسناء كيوتو، التي تمثل اليابان القديمة. لدينا جملة يقول فيها إنه اتخذ قراراً بينه وبين نفسه، ونحن نعرف هذا القرار، الرجل العجوز، بدناءته المحافظة وتعاسته بكل ما تبقى من الماضي الياباني، يأتي إلى كانامه على شكل رؤيا، ترمز إلى ما يمكن أن يصير إليه حال كانامه نفسه ذات يوم. في نهاية الرواية، يواجهنا الوجه الشاحب للدمية "أواجية"، عبر شبكة من الخيوط الكتانية، كرمز أنوثة يابانية مجردة، يلوح إليها كانامه، وتطل علينا أيضاً أوهيسا نفسها، شاحبة ومهتمة أيضاً، وهي تركع بجوار الباب.

4

ليس هنا هو المكان المناسب لتقديم مناقشة مستفيضة عن مسرح العرائس الذي يرمز لفن أوساكا وماضيها في رواية (الذين يحبون الشوك). وربما تخف حيرة القارئ تجاه وصف المسرح إذا استطاع أن يتخيل دمى أكبر حجماً من تلك التي يحركها ممثلون على مرأى من عيون الجمهور.

مسرحية (انتحار الحب في أميجيما)، والتي تم عرضها في الفصلين الثاني والثالث، هي لكاتبها تشيكاماتسو مونزيمون، وهو من أعظم كتاب مسرح العرائس في اليابان. إنها تتحدث عن حب جيهي، وهو تاجر ورق شاب من أوساكا، للراقصة كوهارو. زوجة جيهي، أوسان، تحاول أن تضحي بنفسها من أجل سعادتهما، غير أن الواجبات اليومية والواجبات المضادة تثقل كاهلها، وينتهي المطاف بجيهي وكوهارو بقتل نفسيهما. أما مسرحية (مذكرات مجد صباحي)، التي يصفها الكاتب في الفصل الحادي عشر، فهي ميلودراما عن سيدة جميلة، اسمها مايوكي، ولاعب ساموراي، اسمه كومازاوا، يتحابان ويفترقان. وتفقد مايوكي بصرها في الحال. أما ذروة المسرحية فتتجلى في مشهد معتمد تكتشف مايوكي من خلاله، وبعد فوات الأوان، أنها كانت تمكث مع كومازاوا في الفندق نفسه. تلحق به إلى منعطف أحد الأنهار، لكن الفيضان يمنعها من العبور وراءه إلى الضفة الأخرى، حيث كان قد عبر. ولسوء حظ النهاية، على أية حال، تستعيد مايوكي بصرها، وتجده في آخر المطاف. وهنا يتمنى المرء لو أن كاتب المسرحية عمل بنصيحة تانيزاكي، وتوقف قبل تلك النهاية بقليل.

• مقدمة رواية "الذين يحبون الشوك" للروائي الياباني تانيزاكي، نقلها إلى العربية د. عابد اسماعيل، ستصدر عن دار المدى قريباً

قصة قصيرة

لقاء

خليل شوقي

ليلة مقمرة، حديقة مزهرة الأطراف وبساط من الثيل الأخضر تحيطه مستطيلات ومربعات تزخرفها شتلات ورود ملونة جميلة، تظهر فتنتها المصابيح المركزة على أجزاء منها، لوحة تأسر النفس، ومائدة توزعت عليها صحون المقبلات وقنينة الويسكي وكأسان من الكريستال النقي مترعان. كل شيء يدل على الترف والرخاء، حتى الكرسي الذي أحتله مصمم للراحة التامة. مددت ساقي باسترخاء عذب، ودغدغة الويسكي وليل نيسان يزيدان الخدر خدراً، ومثل طفل تهدهده ترنيمة استسلمت لحديث مفيد الشجي عن أيام خلت، وتنبهت قليلاً عندما توتر صوته بما يشبه الشكوى.

- كنا نسهر.. نشرب.. نضحك.. نتشاجى. نقرأ أشعاراً نستذكر كتاب الأغاني. فلما نشاهدناه نطرح همومنا الصغيرة المتعلقة بالقلب.. نبتسم.. نحب.. نحب حبيبنا.. لم نخرج اليوم من البيت، عدم خروجها هم كبير.. اشتريت اليوم قميص "أرو" لي غير ذلك من أشياء نعتبرها مفتاح حزننا أو سعادتنا، وفي المساء نسهر نسمع أم كلثوم، حسن خيوكه. القبنجي بموشحه الشهيرة "الغريب أصبح يزاحمني إبلادي.. الأهل أهلي والبلادي تعز علي" كل الطرب كان ملكنا نستضيفه وقت نشاء ونصرفه وقت نشاء، وفي اليوم التالي نشرق بمظاهرة لإسقاط الحكومة.

كنت أسمع مغمض العينين وجسمي ينو دمع تضاعيف صوته في وحدة متناغمة، أين الأصل وأين الصدى. الذكريات الحلوة والمرة تتوحدان وتصبحان نكتة نتندر بها في مكافة أنفسنا على هم مستديم، ومرة أخرى جاءني صوته متململاً.

- هل هي حالة ترف أن نسهر ونتظاهر ضد الحكومة وربما نموت بطلقة طائشة أو نتعرض لما هو أخص من الموت؟

وتردد صوتي مثقلاً بخدر الليل وخدر الذكريات.

- الإرادة غير المسلبة كانت تحدد نهجنا اليومي وتدفعنا للاختيار.

- صحتك.

دق صوته القوي الناعم ورنة الكأسين أعادني إلى وعي كمن يفز من حلم غريب التركيب، وبحركة لا إرادية رفعت كأسي وخرجت إجابتي صحتك مضغوطة متداخلة الحروف، ومتاريس وجهة لا تزال مشوشة في عيني.

- نلم.

وضحك ملء بطنه ومن أعلى شفة الكأس نظر إلى شرودي، وأنا أكمع من كأسي. لقد كنت حقاً أشبه بالنائم أو المأخوذ. استمع إليه وشريط من رفقتنا يخالط سمعي، يوم كنا موظفين بسيطين ولم يكمل طريقه معي فقد كان والده ميسور الحال يشغل وظيفة يجني منها إلى جانب مرتبه ما يحسد عليه يومذاك. لم يبخل على ولده الوحيد النازل على أربع بنات بشيء. أفهذا التسلسل للثبت من التذكر. فالأمر الأهم والذي يجب علي التفكير فيه، ما الذي ينفع هذا الرجل وهو الذي يملك مثلما يبدو من بعض تلميحاته عشرات أو أكثر من مصنعين كبيرين لاستعادة كل تلك الذكريات بهذه الحرقة والألم والتباهي. لا بد أنه استرجعها أكثر من مرة ليخرج بهذه الصيغة المنمقة. كان الأجدر بي أن أتذكر مثل هذه الأمور فهي كل ما أملك من إرث لديه توقف وظل ساكناً وغدا استرجاعه متعتي، أما هو فحياته وما سار عليه. كل هذا يستدعي النسيان وليس هذا التغني المغرق في الجزئيات. إني أعجب.. ترى هل لأعرف.. هذا في التذكر أهمية أكبر مما عليه حاله الآن؟! وهل تمر بخاطره صور كهذه في النهار، أم أن الويسكي الحسن وبعد عدد من الكؤوس يذهب به هذا المذهب؟ حيرني أمره ووجدت نفسي أمام خيارين، أما أحفر في داخله لأصل إلى تلك الذكريات ومدى ارتباطه بها الآن أو أن أطفل عليها وأعتبرها مقبلات يتبل بها ليلتنا هذه. التقاني بعد فراق طويل وألح في دعوتي ووجدت إضافة للمائدة التي أعدها على شرف أن يطعمها بهذا الحديث ليزيل الفارق بين حياتينا الآن بعد أن عرف أنني متردد بين أن أمضي سنة أخرى في الخدمة أو أحيل نفسي على التقاعد بعد أن قضيت فيها أربعين عاماً كاملة. أربعون عاماً كنت خلالها وبالتعاقب أدفن شهيداً بعد شهيد مما نذكر في حديثه الطويل والعبيق الأبعض كتيبات احتفظ بها في غرفة نومي، عندما توقفت وطويت صفحتي وودعت شهداء آخرين أعزاء على نفسي أقارب وأصدقاء، آخرهم زوجتي التي قتلت قتلاً مريراً لتملك سكناً يلم "الجريش" أولادنا كما كانت تكنيهم، وماتت مستقرة بعد أن شهدت زواج الأولاد الأربعة والبنتين، وتركت لي الثالثة في سنتها النهائية من كلية الآداب وهذه مهنتها الأخيرة أعيش وإياها وحيدين، يلهفنا الزمن الشره الذي يأتي على الأخضر واليابس.

الكبت ظهر الذكرياتي الوحشة اللازمة لي مذ فقدت زوجتي وتوجهت إليه بسؤال سذاجة.

- كيف تقضي أوقاتك؟

- مثل ما يقضي الناس أوقاتهم.

قالها ببساطة تناسب سذاجة السؤال، فأمثال هذا الرجل لا يلهثون لهاثي اليومي، ولكن لم يفتني انحناء رأسه وعينت نعاله الجلدي في الثيل ثم تناول قنينة الويسكي وهو يتطلع إليها متلذذاً في الشرب منها.

- أنت لم تشرب إلا القليل.

أحسست أنه يتهرب عن الخوض في أمر العمل، لذلك آثرت عدم إحراجه والتدخل في شؤونه الخاصة واكتفيت بالقول:

- لا أريد أن أعود معدتي على الويسكي.

- أتغمزني بهذا الكلام يا إبراهيم، إذن خذ

وصب في الصحن وقدحه كل المتبقي في القنينة. وسارعت لتدارك الوقت فقد شعرت إنه أخذ كلامي على غير ما أخذ.

- صدقني يا مفيد لم أقصد شيئاً مما ذهبت إليه، ولكنه الواقع فدخلي لا يسمح لي أن أشرب "أبو الكلبجة".

عندها ضحك ضحكة عالية احمر لها خده المتورد، ولكي ليبعد عن الموضوع سألته وأنا أعلم أن هذا النوع من الرجال لا يعنيه ما يحمل السؤال قدر شعوره بالتميز والتفرد.

- أما زلت وأنت بهذه السن تطارد النساء وتتشمخر على عباد الله.

اختفت الضحكة وهز رأسه.

- انتهى كل شيء.

بدأت استرجع بعض ذكرياتي. أعود قبر شهدائي الذين دفنتهم الواحد تلو الآخر، سماع الموسيقى، قراءة الشعر والروايات وكتب الثقافة. انتبهت فجأة، تحجرت حنجرتي. في بداية جلستنا انص هذا الأحمق ما ليس له. ردد ما كنت أنا عليه وليس هو، ما الذي عنده من هذا الترديد، أهل هو سعي للاقتراب من مشاعري والإثارة حميمية ما في علاقتنا على الرغم من تنكر مشاربنا، كما لو أن كلانا يبحث عما يفتقد. كنت أفتقد رعونته وعبثه وعدم اكتراثه أو إعلانه ندمه للأخطاء التي يرتكبها. كان متخماً بالعجرفة حتى في مشيته، وكان في أحيان يفصح عن حسده على هدوئي ورصانتي وهو لا يعلم أنهما وأموراً أخرى نسيج حياتي يومذاك، تجعلني دائم الحذر والتظاهر بالتماسك إضافة لزواجي المبكر. سرق ذكرياتي وأعادها علي بعد أن ينسبها لي.. إن الذي يسرق الذكريات يسرق أشياء أخرى.

قررت الانصراف فنهضت وإذا به ينتفض واقفاً وقد اتسعت حدقتاه.

- لن.. سنشرب.. سآتي بقنينة أخرى، ولن نغادر قبل أن نتعشى.

غادرني قبل أن يسمع ردي، احترت بأمره فما الذي يدفعه لكل هذا التشبث، إن كان دعاني مجاملة فلا ضرورة لإصراره على بقائي، وإن كان العشاء سينهي الزيارة كان بإمكانه التعجيل به. اكتفيت بهذا القدر من التفكير وتركت الأمور تجري، حتى لو انتهت إلى سكري، فالسيارات الفارهة كفيلة بنقلي إلى بيتي بلا خوف من ليل طائش.

وكما يستقر البدر في كبد السماء صافياً رائعاً، استقر على المنضدة بدر آخر، سمكة رقبية البطن ثقيلة الخصر والردف. ليحيا مفيد فقد جمع شملي مع الأحبة وها هم أمامي الويسكي واللوز والفستق وأخيراً السمك. أفقت ولم أفق على صوته

- مدينك.. هذه السمكة من بحيرة أسماكي.. تذوقها..

أتذوقها أم هي التي تتذوق مرورة الجمي.

- قل يا إبراهيم أنا أعلفها علفاً غنياً بالفيتامينات.

- علف محسن؟ أحسنت يا مفيد بو سملتك سآكل العلف الحسن

- أحسدك على سكرك.. هكذا والأفلا.

- السكر يا عزيزي تمجهر يجسد الرؤيا.. كثيرون في العالم.. كثيرون.. كثيرون يعوزهم السكر.

حاولت جاهداً بعد أن جاوزت حدود الشرب أن أجعل كفي ثابتة وأنا أخرط بطن السمكة الحسنة لأضعها في صحن مفيد الذي انتفض وحلف أن تكون لي اللقمة الأولى. رفعت رأسي فتواجهت بنظراته التعبة تتبارك بوجهي، توقف كل شيء، الزمن والحقد والحسد وكل ما يحرك داخلي من خير وشر، وبصوت يحمل الرجاء والتمني قال.

- أحسدك يا إبراهيم.

ضحكت عالياً فاختل توازني وكدت أسقط لولا التشبث بالمنضدة.

- تحسدني على أي شيء يا.. يا..

أمسكت لساني. كنت أنعته بما كنا ننتسبه في شبابنا ونظرت إليه ساهماً، وإذا بهذا الصرح الكبير منهد في كرسيه وتنطر له تملوقة بين أصابعه وهي ترسم دوائر صغيرة في طريق الثانة. لم يسحب نفساً عميقاً وتتحرج صوته هادئاً.

- عني يا إبراهيم أكشف عما ليس لك به علم.

هدأت نفسي قليلاً وسكن خفقان معدتي بعد أن استقر فيها بعض ما أكلت، واخترمت فوراً أحزن الرجل وانكساره دون معرفة السبب. صورة جديدة يكشفها سكره عملت في رأسي المقولة الخالدة: ما أفتنى غني الابفقر فقير.

ودرت الإصغاء فقط.

- أنا حزين منتهى الحزن، وخائف منتهى الخوف. لا تعجب يا إبراهيم، منظرة طويلة وصورتك.. لا أخفي عليك.. مشوشة العالم، ويوم التقيتك أثرت في نفسي ذكريات قديمة، يوم كنت تعاني وتحاذر من كل شيء، وتحصن نفسك بهالة متناهية لتثير سخريتي.. يومها لم تكن الوظيفة مطمعي. كنت ألهث للإثراء وتسديد عمقي، سنوات صعبة عاركتها مثل حيوان أهوج، تنفخ كل شيء في حياتي، غروري، خزانة نقودي، رصيدي في المصارف وعقاري. أنا الآن يا إبراهيم أقف على جبل من الثروة.

جال ببصره أرجاء الحديقة وبصوت مخنوق تلع.

- لكن التوحش والخوف يلاحقاني في كل خطوة أخطوها، حتى أحلامي باتت تشكل كابوساً يطبق على أنفاسي.

شعرت وأنا أستمع إليه بشيء من الغرور والاعتداد بالنفس، فأنا لم أذق طعم الثراء لأتعرف على نوع جديد من الخوف، بعد أن نالت السنون مني وتلاشت أسباب حبر لحبل بيني وبين مسارب الخوف فلا أملك سوى الفراغ والانتظار. التأمل لعبتي المفضلة أبدأ من أولها لأنتهي، ثم أعود فأنتهي من حيث بدأت محاولاً مسخ التكرار ومسحه، ولكن اللعبة لا تنفك تعاودني، وأمامي الآن نموذج جديد ينشط ويسط تصحيح أفكاري.. سألته متجاهلاً من يعرف أسباب خوفه.

- هل الخوف من اللصوص؟

قطب حاجبيه فجأة وجرع المتبقي في كأسه كمن يستجدي الوقت لاستعادة تماسكه. إن هذا الرجل مع كل ما يملك من مقومات القوة جبان، لم يكن كذلك في شبابه وكنت أنعته في بعض الأحيان بالشاب الذي لا يخاف من شيء.

- الحقيقة يا إبراهيم أود من صميم قلبي أن تستمر لقاءاتنا فقد كرهت معاشرة أصحابي فجل أحاديثهم تدور حول المال والصفقات والبيع والشراء.

لقد استعاد وعيه ولا أمل يرجى من محاورته واستجلاء دواخله، وكنت قد تهيأت كل مراسيم الاستضافة فاستأذنته بالانصراف.. حاول مشاغلتي ولكني أصررت على الانصراف.

في اليوم التالي استعدت شريط الليلة المنصرمة إذ لم تكن بالنسبة لي حدثاً عابراً في مسيرة أيامي الرتيبة بل ربما سانتفع بها ما بقيت حياً، لذلك قررت تنشيط دورة الدم في حياتي بتكرار هتفه، ولم أتردد في رفع السماعة وبفرح غامر أدرت قرص الهاتف. انتظرت والجرس يضرب ولا أحد يجيب وكنت أغلق الخط عندما جاءتني الإجابة صراخ وعويل نساء يفت القلب وصوت طفل.. حلو.. جدو ليه.

صلاة في الناصرية . . . قداس في روما

نعيم عبد مهلهل

لم أضع في خاطري في يوم ما أن الناصرية وروما قد يجتمعان تحت خيمة هاجس واحد، فنحن لم نتشرف بحطلة الاسكندر البهية، لأن المنية لم تكمل سيره إلينا ومات في بابل بعد أن نيل عودة عشرة أيام، وبطليموس كان يخشى هيبة إلهة سومر فلم يذهب إلى هناك. بطريق الكنيسة الكاثوليكية في القسطنطينية، قال: أوصلنا النصرانية إلى الحيرة، وما بعدها كان عصياً علينا، لأن بيزنطة تركت حلمها بالجنوب إلى كورش وخلفائه ولم تفكر يوماً ما أن توصل خوذ كتائب فرسانها إلى هناك، ويقال إن الأمر يتعلق بالمياه الواسعة التي تغطي تلك البطائح وبقصد مياه الأهوار. لكن الفرص التاريخية تأتي أحياناً من دون موعد، وكان قدر التداخل الحضاري الجديد الذي ليس ربما مرغماً رداء الديمقراطية أن تكون الناصرية من حصة جند روما في الحرب الأممية الثانية التي دخلت اللعب العراقي خلال ثلاثة عشر عاماً. وكنا نراهم هامشين وربما لا يمتلكون عامل الحسم في أمور كثيرة كما كانت تفعله الشرطة العسكرية الأمريكية، ولأن الوطنية في ليبيا لا تحب أن تصف يوميات جندي جاء من دون سابق معرفة، إلا أن الأمر ترتب هكذا، وصار جنود البابا مثلنا يتذوقون الكرفس والفجل ويتمتعون بلعب صبيتنا في ساحات كرة القدم الشعبية، وأحد مخرجي الواقعية الإيطالية جاء إلى أور ليدرج على ذاكرته واحدة من أحلام التناص الحضاري لكنه لقي مصير أخوة حملته واحترق جراء السيارة الملغومة التي اخترقت جدار مقر القوات المفتوح في فضاء الطلق

دموياً لم تر الناصرية في تاريخها مثيلاً له عدا ذلك الذي ضربت به الطائرات جسر الناصرية في عام 1991.

وهكذا امتزج دم أبناء روما بدم أبناء الناصرية في حدث لم يكن يفكر بقدرته أحد، وعلى روح من ذهبوا ضحايا الشاحنة التي عبرت سياج الموت لتدمر المبنى والدور المجاورة له، أقامت روما قداساً جماعياً لم تقمه منذ الحرب الكونية الثانية، لقد كان الأمر مباغتة للروح الإيطالية، وكما قال أحد نواب البرلمان: نحن ندفع ثمن أمميتنا لا ثمن قوميتنا، والأمر مرهون بالسياسة وإرادات لا تقدر عليها إيطاليا. أما في الناصرية فقد تفرقت الصلاة على شهداء مجزرة الشاحنة المفخخة بين الأحياء والبيوت، لا قداس موحد ولا ورد على النعوش، متفرقين يبكي أهل الضحايا، فالأمر لم ينته بعد ولا بد من ثمن، ولكن متى تنتهي أقساط هذه الفاتورة؟ سؤال اجتمعت على إجابته الناصرية وروما. مثل روما شاعرها الكبير دانتي، صاحب الكوميديا الإلهية، ومثل الناصرية طفل بعمر الورد احترق مع والدته داخل السيارة لحظة الانفجار. لم تكن هناك معادلة فكرية وزمنية بين الشخصيتين، لكن النقاش طال الليلة كلها، وفي النهاية بدا المشهد غامضاً بالنسبة للمتحاورين، فضل دانتي العودة إلى روما لتكملة القداس، في حين ذهب الطفل إلى مقبرة السيد خضير الصافي * ليدفن هنالك.

* السيد خضير الصافي سيد مبارك له ضريح في أطراف الناصرية وقربه مقبرة يدفن فيها الأطفال الموتى دون السابعة